

مكتبة مصر
تقدم
مجموعة قصص وسيرة

منطق أعرابي

إعداد : أمير سعيد السحار



رسوم
عبد الرحمن بكر

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع فؤاد مدني بالقاهرة

انطلق أحد الأعراب سائحاً بفكره في روحانية يعقد أنها أسمى من روحانية أهله وعشيرته وذويه ، ورأي أرفع من رأي أقرانه وخلائه ..
 إنهم يعبدون الآلهة ، ويقرّبون إليها ، ويقتنونها كلّ القديس ، ويخصّونها بالاحترام والتوقير ، ومحسون عليها الأحاسيس ، وهذا كله جميل وعظيم كما يعتقد ويؤمن . بيد أن شيئاً واحداً يحز في نفسه ، ويؤلمه ويضنيه ، ولا يفهم له سرّاً إلى الآن ، ذلك أنه إذا أراد خيراً دعا هذه الآلهة أن تقدّم له الخير ، وتسدي إليه النعم والفضل ، ويبالغ في دعائه وضراعه ، ويلحف في طلبه إلخافاً كبيراً ، يحز في نفسه ، لأنه عربي عزيز النفس ، لم يالف الدلّ في السؤال ، ولا المسكنة في الطلب ، ولكنه يعلل هذا بأنها آلهة ، ومن حقّ الآلهة على كل من يعبدها أن يقدم لها فروض الطاعة ، ورسوم الاحترام ،



يفعل ذلك ، ولكنه لا يحظى منها بالخير المرتجى ، ولا بالأمل المرغوب . !
 إذن ، فما الفائدة منها إذا لم تجبه إذا سأل ؟ ولم تعطه ما يريد ؟ هل
 يعيدها ويقدهسها ، ويقدم لها فروض الطاعة ، وواجبات الاحرام والتبجيل ،
 ولا يحظى من وراء ذلك بظائل ؟ هذا كثير !!

ثم ماذا ؟ ثم هو إذا خاف من شر وضر ، ابتهل إلى هذه الآلة بدلية
 وضراعة ، وخضوع ومسكنة ، عليها تدفع عنه ضره ، ونحس عنه الشر
 الذى يخشاه ، والمكروه الذى يرهه ، والأذى الذى يخافه ، ولكنها أيضاً لا
 تحبس عنه الشر ، ولا تدفع عنه المكروه والضر ..

إذن ، فما النتيجة من هذه العبادة التى طال أمدها ؟ وكثرت مراسيمها
 وعظمت تكاليفها على نفسه ، فلم يعد يطيق صبراً بعد ذلك ؟
 وإذا لم تقدم له الخير ، وعجزت عن ذلك ، أليس من الإنصاف أن تدفع
 عنه الضر على الأقل ؟ .. ذلك بعض ما يجب .

...

كانت هذه الشكوك تساوره ، وتحز في نفسه حزاً عميقاً ، يذ أنه أخذ
 يجاهد ويجاهد ، ويصابر نفسه ، ويراوغها ويداورها ، فيقول :
 - ربما لا أفهم السر في ذلك ، ورب الغد القريب يكشف عن الحقيقة
 التى لا بد وأن تكون على غير ما أرى وأظن ..
 وبهذا أمكنه أن يقنع نفسه ، ويرضى خياله وفكره ، ولكن لا عن

عقيدة راسخة ، وإيمان عميق ، ولكنه إقناع فيه تقليد لمن تقدمه ، وفيه
 انكار للعقل اليقظ ، والفكر الناقب ، والرأي السديد .
 وهو يعجب ! لماذا لا يزال أقرانه وعشيرته يعبدون الأصنام ،
 ويقدمونها إلى الآن ؟ ، ولماذا كان على ذلك آباؤه وأجداده من قبل ؟
 ولماذا ماتوا على هذه الحال ؟ . إذن فليتنظر !!

...

ولكن أبقى هكذا يقلد الآباء والأجداد ؟ لا لا ، عليه أن يتصرف بنوع
 تصرف ، فيبالغ في التقديس ، ويعتز في الإجلال والاحترام ، لما الطريق
 إلى هذا ؟

وظل هذا الأعرابي يفكر في هذه الناحية حتى أجهذ فكره ، واضنى
 عقله .. أخذ يعرض على نفسه صوراً كثيرة ، وحلولا عديدة ، ولكنه
 سرعان ما يرفضها ، لأنها لا تروقه ولا ترضيه ، ولا تطربه ، ولا يسمع لها
 في نفسه صدى ، ولا يرى لها القيمة العظيمة التي يرجوها ويصبو إليها ..



وأخيراً ، اهتدى إلى حلّ أراضه ، ورؤى غليله ، وشفى نفسه مما تجذّ وما تعانى .. عليه إذن أن يصنع إنَّما يعملُه وحده دون سواه ، يصنعه صغيراً ، بحيث يمكنه أن يحملَه معه أينما حلّ أو ارتحل ، فى الإقامة والسفر .

ورأى له الفكرة ، وطرب لها ، وأخذت أسارير وجهه تنبسط فى فرح ومراح ، وهتف من أعماق قلبه فى عزم وصرامة :
— هذا هو الطريق الذى أبرهن به على إخلاصي فى العبادة ، وحيى للآله ، ولم أفعل ما يفعله الآباء من قبل .

وكان له ما أراد ، فصنع إنَّما صغيراً ، وبالع فى تزيينه وتجميله ، حتى أصبح كذمية جميلة ، تسرعى الانتباه ، وأحاطه بسياج من النجالة والتقيس والاحكام ..

...

ورأى الأعراب رجلاً منهم يحملُ لأول مرة صنماً صغيراً فى كل رحلته وأسفاره ، وحله وتوحياله ! يحملُه فى إكبار وإجلال ، يضعه إذا اسراح ، ولا يكاد يحولُ عنه الطرف ، بل يبقى بصره عالقاً به ، وكأنه يستمدُّ منه المعونة والنصر على الدوام .. ويعملُه إذا سار ، ولا يتحول عنه ، ولا يصرفُ عنه النظر ..

واختلفت فيه الأقوال ، وتباينت الآراء ، ولاكت سيوف الألسنة الحداد ، هذا يمدح عمله ، ويثني على فعله ، ويرى فيه رجلاً عاقلاً ديناً ، يستحق

من قومه التَّجِيلَ والاحترام ، والتوقيرَ والإعظامَ . وأنه ابتكرَ شيئاً يستحقُّ عليه الحمدُ والشَّاءُ !

وهذا آخرُ يرميه بالجنونِ ، ويصفُ عمله بالسَّوءِ والضلالِ ، والنكرانِ والبهتانِ ، ويرى أنه أحدثَ بدعةً ذميمةً ، إذ كيف يجوزُ أن يحملَ الإلهُ هكذا ويمضي به في كلِّ طريقٍ ؟ إن هذا معناه الاحتقارُ والاستهانةُ بالمعبودِ ، لا القداسةُ والإجلالُ . !!

وهذا ثالثُ اتخذَ منه سُخريةً ، ومثاراً للنكتةِ اللَّاذعةِ ، والطُرفةِ القاسيةِ .. !

ولكن واحداً من هؤلاء لم يجوزْ أن يصفوه بكلمةٍ واحدةٍ ، أو يفتحَ فاهُ بنقدِ أمامِ الأعرابيِّ ، وإنما هذه آراءٌ تُبَسِّطُ وتُقَبِّضُ ، وصفحاتٌ تُطوى وتُنشرُ ، دونَ أن يعلمَ عنها هذا الواقعُ المدلِّهِ شيئاً .. !!

والظاهر أن هذا مرجعه إلى إخلاصِ الرجلِ أخيراً في عمله ، وحبِّهِ لمعبوده الذي يحمله ، ومظاهرِ إجلاله ، وتقديسه له ، كلُّ هذا جعلَ الألسنَ تكفُّ عن الحديثِ ، ولا تذكرُهُ إلا في غيِّهِ بعيداً عنه .

وهكذا قصرَ الأعرابيُّ العابدُ الوالهَ عبادته على معبوده ، الذي صنعه يديه ، وسواه كما يحبُّ ويهوى ويريدُ .. على الصورةِ التي يمتثلها والهيئة التي يريدُها .

عجباً ! عابدٌ يخلقُ معبوداً !

وارفع صوت القدر من بعيد يردد هذه العبارة ، ولا يجد مجيباً عليها
سوى صوت آخر ، فيه قداسة الواقع ، وصرامة الحق ، يقول :
— هذا منطوق معكوس !

ولكن هذين الصوتين لم يصبلا إلى أذني ذلك الأعرابي الواسع المدله ، إذ
طبع على قلبه ، فهو غلف عن الحق ، بعيد عن الصواب ، فظل يحمل
الصنم لا يريم ، وكان لا يركه إلا حيث يقضي حاجته ، ولا يحسر عنه
الطرف إلا حيث تنام منه العينان !

وتولقت الصلة بين الأعرابي ومعبوده ، وأصبح ذلك الصنم الذي
لا يسمع ، ولا يرى ، ولا يحس ، ولا ينفع ولا يضر ، ولا يتحرك ..
أصبح هذا الصنم جزءاً لا يتجزأ من حياة ذلك الأعرابي الغريب .. !!
أجل ، إنه يناجيه باغذب الأحن ، ويناغيه في غفوة من الناس ، ويقوم
إليه في جوف الليل يشه شكواه ، ويلقي إليه بما يتمنى ويشتهي ويرجو
ويأمل ، ولكن الصنم مع هذا كله صامت لا يتحرك ، أصم لا يسمع
ولا يصيح ، أخرم لا يفكر ولا يجيب !!



وكان الأعرابي عندما تقور روحانيته ، وبعلو نسيجه ، يسمع الصدى
يردد .. تردده القلاة الرحبة الوسيعة ، فيخيل إليه أن الإله يجيبه ويرد على
أمايه ، ويحقق آماله ، ويوحى إليه بما يجب أن يعمل ، فيمضي في شكائته
وضراعيته ، أو بالحري في غمائه وجهالته ، ثم يقوم بعد ذلك ينقل أول
فكرة تبدو له ، معتقدا أنها من وحي إلهه ومعبوده .. !

وخرج مرة إلى الصحراء يحمل صنمه ، وقد بلغت محبته له أقصى
غايته ، فلم تغذ يده تشغّر بثقل هذا الصنم ، لكثرة مرايتها على
حمله ، وشعور العابد النفساني نحو هذا المعبود .
وصار من العسير أن يدعه ويمشي بدونيه ، بل من المتعذر أن
يغيب عنه لغير الحاجة الماسة ، والضرورة القصوى .

وسالت عبراته تشتكي له أمرا من الأمور ، فلقد شعر بضيق
لخلاف وقع بينه وبين رئيس القبيلة ، وهو يخشى عاقبة هذا



الخلافة ، فيرجو صنمه ومعبوده أن يُزيل هذا الخلاف ، وأن يدفع عنه هذه الجائحة التي يرى بوادوها ، ويشعرُ بخطرها ، يقربُ رويداً رويداً ، وأسبابها تمتدُّ ، وتأخذُ عليه كلَّ ميل .

إنه رجلٌ ضعيفٌ لا ناصرَ له ، ولا معينَ ، فمن الواجب أن يقفَ صنمه بجانبه ، يُعينه ويساعده ، وينصره على خصمه العاتي الظالم ، وليس ذلك على الإله العزيز .

وأحس بشعور باطني وحنان نحو هذا المعبود ، وكان شيئاً سيختطفه منه ، فنظر حوالَيْه في دُعرٍ وخوفٍ ، وأمسك به في قوةٍ وجبروتٍ ، ولكنه خشي أن يتكسرَ من شدَّةِ الضغط ، فجلس مُتَيْهَةً ليسويح ، لم قام ليقتضي حاجته ، فابتعد عنه قليلاً ، ولكن نظره عالقٌ به في حرصٍ بالغٍ واهتمامٍ كبيرٍ .

وجاء ثعلبٌ من بعيدٍ ، فنظر إليه الأعرابيُّ في حنقٍ وغيظٍ ، وكأنه غريمٌ له يحاول البطشَ به والاعتداءَ عليه ، وتقدم الثعلبُ ، وأقرب من الصنم ، فعجب الأعرابيُّ أيما عجبٍ ! واشتدت حيرته ، وعظمت دهشته ! ثم قال في نفسه :

ما حاجة هذا الثعلبِ إلى معبودي ؟ وما الداعي لأقربائه منه إلى هذا الحدِّ ؟ .. عجباً ! إنه يُشمشم فيه ، ويدورُ حوله في احترامٍ بالغٍ ، ووقارٍ كبيرٍ . ترى هل يفهم الثعلبُ المأثور معنى التقديس والاحترام ، والعبادة والتبجيل ؟ فهو يقدم فروض الطاعة ، ويؤدي مراسيم العبادة ، ومظاهر العبودية لصنمه العزيز !

بالمعجب ! إذا كان الأمر كذلك ، فصنعه من الاحرام بمكان عظيم ،
ولابد أن يكون معبود الإنس والجن ، والحيوان الصامت والباغم على
السواء .. إنه مقصر إذن في حقه ، وكان من الجرم أن يعزبه الشك في
هذه الآلهة والأصنام ، عليه أن يقوم فوراً ، ويقدم فروض الطاعة كما يجب
أن تكون ، وعليه أيضاً أن يمسك بهذا الثعلب ، ويحفظ به ، لأنه مفكر
عافل ، وإلا فكيف يقدم فروض الطاعة إلى الإله ثعلبان ؟ لابد أن يكون
هذا الثعلبان مقدماً هو الآخر ، وأنه صافي النفس ، نقي الروح ..

وكان فرح الأعرابي بهذا الحادث ، وذلك المنظر عظيماً جداً ، واجتهد
لينتهي مما فيه ، من قضاء الحاجة ، ليقوم إلى ذلك الثعلبان ، ويمسك به
خشية أن تفلت منه الفرصة المواتية ، والحظ الكبير .. ولكنه اعتقد أنه
لابد منظره ، وأنه يعلم ما يحول في نفسه من أفكار لها قيمتها ومكانتها
ورفعتها وسعوها ..

وطال دوران الثعلب حول الصنم ، وتسخه به ، وازداد إعجاب
الأعرابي بذلك ، وعظم حبه لصنمه وللثعلب أيضاً ، وكاد ينتهي من قضاء
حاجته ، ويسرع إلى ذلك الكنز يحويه ويحرص عليه ، ولكن حدث ما
جعله يقف مكانه حيث هو مشدوها لا يحير .. 11

حدث أن ذلك الثعلبان رفع إحدى رجليه الخلفيتين !

تُرى هل يريد أن يسول ؟ وكيف ذلك ؟ هذا ما لا يفهمه الأعرابي
ولا يدريه ، إنه لا يمكن أن يكون هذا بحال من الأحوال ، فكيف يسول
الثعلب على الإله ؟ هذا كثير .. يجب أن ينتظر حيث هو ليرى ماذا يكون
حقيقة الأمر ، وواقع الحال !

إنه لو فعل - بلا شك - ستطبق السماء على الأرض .. لن تبقى
 الأجواء كما هي تَبْعُ النشاط في البدن ، والحياة للجسم ، وتمسك
 الروح .. ولن يهبَّ النسيمُ بملأ الرئتين ، ويتعشُّ القلوب .. ولن تبقى
 السماء مزدانةً بالنجوم .. ولن تكون الشمسُ مضيئةً منيرةً تُرسل الأشعةَ
 ناصعةً حارةً تنقي الأجساد ، وتنمي النبات والأشجار ، ولن يظهر القمرُ
 جميلاً رائع المنظر ، صافي الأديم ، نقي الرقعة .. يُريح القلوب المكدودة ،
 ويشرح الصدور المحزونة ، والأفئدة المكروبة ، ويذهب الوحشة القائمة التي
 تخيم على النفس ، وترين على الروح فكاد ترهقها .. ولن تبدو الكواكبُ
 ملتصعةً متألقةً من حين إلى حين ،

منفورة في السماء كدراهم

نُثرت على بساطٍ من

زبرجد !! ولن يوجد



بعد حيوان أو نبات !! لن يقيم ظني ، أو يصهل فرس ، أو ينفو شاء !!
 أجل لابد أن تزول هذه الحقائق الثابتة ، وتلك الخلائق الماثلة عندما
 يفضب الإله ، ولا بد أن تتمحي هذه الكائنات في لحظة واحدة ..
 وإلا فكيف يكون هذا الصنم حقيقة بالعبادة ، إذا لم يفضب إن بال عليه
 ثعلبان خسيس ؟

وأغمض الأعرابي عينيه . واضطربت في باطنه ثورة عاصفة ، وأيقن
 بقرب الطاقة ، واقتراب الراجفة ..

ثم يخسف الأرض وطبها كما يطوى السجل ! يا ويح
 الإنسانية ؟ وما بلاء العالم المكروب ! هذا نذير الدمار
 والويل ، هذه نهاية العالم سيشهدا بعينه
 الآن .. لطفاً .. !!

ألا يمكن أن يكون كاذباً في نظره ، مغالياً في خياله ؟
 وأنه أخطأ النظر ، وأن الثعلبان لا يول ؟ من الجائز ، ولكن
 كيف ذلك ، وهو متحقق منه ؟ أنه لا يعلم ، بل
 هي الحقيقة الواقعة لا مبرية في هذا !!

...



ولفتح عينيه ، فإذا بالتعب يولُ على صنوه .. !

عجباً ! إن السماء كما هي ، بصفاتها وزرقتها وجمالها ، وإن الأرض كما هي منبسطة الرقعة ممتدة الرحاب ، لم تنطبق السماء على الأرض ، ولم ترتج الأرض ، ولم تحسف ، ولم تُطوَّط على السجل .. لم تنفجر ينابيعها ! أو تهطل المياه متدفقة من السماء لتغرق الكون ، وتقضي على الناس .. ولم تهب العاصفة تحرق الناس ، وتدمر العالم .. لا لا .. هذا كله لم يحدث ولم يحدث شيء منه .. فما معنى هذا ؟ أمعناه ... أمعناه .. !!

وفرك عينيه ، ولم يقدر على تصور ما يحول في خاطره أو يعمل في نفسه .. إله الكفران .. إنه النعمة والفرحة والرحمة .. !!

ثم غص بصره سريعاً ، ودارت الدنيا به ، وأحس أنه يسمع كل حركة في السماء والأرض ، وانبهت أمامه الحقائق ، حتى لم يحد يسمع شيئاً لأنه لا يبين شيئاً ..

وأحس أنه يرى في السماء والأرض ، حتى خيل إليه أنه لا يبصر شيئاً ، وأن الدنيا أمامه ظلام في ظلام ، وأحس أن العاصفة تولد ، وأنه في مهبّ الريح تنذر من كل مكان ، وأن الحرارة الأليمة تضنيه وتسقمه ، حتى كأنه في النيران يطلّ بين طبقات الجحيم . !

أحس بهذا كله وشعر به مجتمعا ، فلم يميز شيئاً لشدة ما ألم به من خلل في الحس ، واضطراب في العواطف ، وإرهاق للشعور !

وحول نظره مرة أخرى ، فإذا بهذا اللصيق لا يزال يسول ، ويدور حول
 الصنم ، وكأنه يسخر منه ومن صاحبه في صورة النملة قاسية ، وبهراً به
 ويعبده إلى هذا الحد الزوي ، الذي أورثه المهانة والضعة ، والدلة القاتلة ..
 عند ذلك لم يطلق صبراً ، وانفجر صارخاً في حدة وجنون ، وطلق يعدو
 نحو الصنم بسرعة وخيل ، وقد جحظت عيناه في احمرار مخيف ، وتدفق
 الدم حاراً ثائراً في شرايينه ، فكأنما هو وحش فائق ، وسبع ضار .
 وفرع الثعلبان من هذه الحال ، وولى الأدبار ، ولكن الأعرابي لم يتركه
 يجري ويقلت منه ، فأخذ يعدو خلفه ، والثعلبان يحاوره ويداوره ، وكأنما
 وهب لهذا الأعرابي قوة السماء ، فاوتي ما لم يؤت الإنسان ، فما كانت



المسافة بينه وبين الثعلب - الذى أخذ يجري هو الآخر في جنون - أكثر من
مترين أو ثلاثة ، وهذا ما جعل عنده الأمل قوياً في إدراكه واللحاق به ،
فظل يعدو والثعلبان يعدو .. والحصى يتناثر هنا وهناك ، والأحجار
تساقط في عنف ، والرمال تتير غباراً يعلو ثم تذروه الرياح .. والأعرابي
يعدو مشمراً ثوبه ، وكأنه عفريت من الجن ، أو طاغية جبار من مردة
الشياطين .. !!

لقد كان منظرًا يبعث الرعب في القلوب ، واللع في الأفئدة ، ولكنه
في الوقت نفسه يثير الضحك ، ويدعو إلى العجب والدهشة ، ويُلقى في
رُوع الناظر أنه لا يرى شخصاً عاقلاً يفكر ، وإنما يرى شخصاً محبلاً به
من الشيطان الرجيم !

ثم أخذت المسافة تطول وتبعد ، بين الأعرابي والثعلب رؤيداً رؤيداً ..
فلقد تعب الأعرابي ، وخارت قواه ، أما الثعلب فمضى إلى سبيله يعدو لا
يلوي على شيء ، وكأنما هو يسعى إلى عمل ذي بال !!

...

رجع الأعرابي منهوك القوى . مهتّم البدن ، حزينا أسفاً حيران ..
وعاد إلى صنعه وهو يلعبه ، ثم أخذ يركّله بقدميه في سُخرية واستهزاء ،
وهو يتميم :

— إذا لم تدفع عن نفسك الضر ، فكيف تستحق العبادة والوقار
والاحترام ؟ كيف أعبدك أيها الدليل ، وأنت هدف لأحسن الحيوانات ،
وأضعف السباع ، وأحقرها شأنًا ... للثعلب اللعين .. ١٩

تُكَلِّتِي أُمِّي إِنْ عَبْدْتُكَ بَعْدَ هَذَا .. أَوْ عِدْتِ صِنْمًا عَلَى الْإِطْلَاقِ .. إِنْ
نَفْسِي لَمْ تُكَذِّبْنِي حِينَمَا حَدَّثْتِي بِأَنَّكَ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ . وَأَنْ عَابِدَكَ
مُخْبُولٌ .. !

وَصِمْتَ قَلِيلًا ، ثُمَّ جَارَ فِي حَقِّ وَغَيْظِ :

— لَتَذْهَبَنَّ إِلَى الْجَحِيمِ أَيْهَا اللَّعِينُ .. لَنْ أَعْبُدَ صِنْمًا بَعْدَ الْآنِ .. إِلْسِي
صِنْمُكَ بِيَدِي ، وَسُوَيْتُكَ كَمَا أَحْبَبْتُ ، فَكَانَ الْمَنْطِقُ السَّلِيمُ أَنْ أَكُونَ أَمَا
إِلَهَكَ وَمَعْبُودَكَ ، لَا أَنْ تَكُونَ أَنْتَ إِلَهِي وَمَعْبُودِي .. !!

وَدَارَ حَوْلَهُ دَوْرَاتٍ ، كَمَا يَدُورُ الْأَسَدُ الطَّعْنُ ، ثُمَّ رَفَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى
أَعْلَى ، وَقَذَفَ بِهِ إِلَى الْأَرْضِ فِي حَقِّ وَغَيْظٍ وَقَوْرَةٍ ، وَهُوَ يَقُولُ فِي تَشْفٍ
وَيَقْمَةٍ :

أَرَبًا يُولُ الثَّعْلَبَانِ بِرَأْسَيْهِ لَقَدْ ذُلُّ مِنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ !
فَوَقَعَ الصِّنْمُ مُهْشَمًا ! وَمَعْنَى الْأَعْرَابِيِّ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ شَدْرًا ، وَقَدْ
تَخَلَّصَ مِنْ خُوبٍ كَبِيرٍ .. وَنَجَا مِنْ خَطَرٍ مَاحِقٍ وَشَرِّ أَلِيمٍ .. !!

